

الفصل السابع

المنظور النسقى للجنوح

1. منطلقات المنظور النسقى
2. خلفية أن الجنوح انحراف عن القواعد الاجتماعية:
 - 2-1-1. تصنيف الزوج لاويير لأسر الجانحين:
 - 2-1-1-1. النموذج المبني على عدم الاهتمام الوالدى
 - 2-1-2. النموذج المبني على الصراع الأسرى
 - 2-1-3. نموذج الأسرة ذات القيم المنحرفة
 - 2-1-4. نموذج الأسرة المضطربة
 - 2-2. تصنيف "فريشات ولوبلان" لأسر الجانحين
 - 2-2-1. الأسرة ذات المنحى المتصارع
 - 2-2-2. الأسرة غير الموجودة أو المنعدمة
 - 2-3. تصنيف "لوبلان" لأسر الجانحين
 - 2-3-1. نموذج الأسرة المناسبة
 - 2-3-2. نموذج الأسرة المتنازعة
 - 2-3-3. نموذج الأسرة الخرقاء
 - 2-3-4. نموذج الأسرة العقابية
4. تصنيف أن الجنوح اضطراب مرضى يمس السلوك
 - 4-1. نموذج التعمية
 - 4-2. نموذج التبادلية الكاذبة
 - 4-3. نموذج التمثلث غير السوى
 - 4-4. نموذج كبش الفداء
5. تعليق

الفصل السابع

المنظور النسقي للجنوح

1. منطلقات المنظور النسقي

اهتم تناول النسقي في ميدان علم النفس المرضى - وبالأخص الطب العقلي - بالأسرة ونظر إليها على أنها مجموعة من العلاقات تتم عن طريق التواصل. وإن كان يرجع هذا تناول إلى النظرية العامة للأنساق لـ 'ليدوينج فان بيرتالونفى Ludwing'. 1973 van Bertalanfy الذي اهتم بالأخص بالأنساق المفتوحة للتوازن؛ حيث أكد مصطلح "الضبط بواسطة التغذية العكسية" " la régulation par feed back الذي كانوا قد أطلقوا عليه في ميدان البيولوجية تسمية " ذاتية الانضباط " Homostase.

وهكذا وانطلاقاً من سنة 1957 قام "دون. د. جاكسون" Don. D. Jackson مؤسس مدرسة "بالواتو" Palo Alto، بتقديم فرضية مفادها "... أن مرض المصاب يمكن أن يفهم كآلية ضبط ذاتي وظيفته إرجاع توازن النسق الأسرى، الذي يعيش في خطر التغيير. (Elkaim.M,1997,P443)..."

هذه الوسائل النظرية سمحت فيما بعد بتفسير الوظيفة الدافعية إلى المرور إلى الفعل الجانح؛ من أجل الإبقاء على توازن النسق الأسرى الاجتماعى .

وهكذا أعطى هذا المنظور اهتماماً بالغاً لفهم الفعل الإجرامى الجانح بالأخص داخل النسق الأسرى، مساعداً بذلك على كشف وفهم الأفعال التي تظهر أنها غير مفهومة لكنها متكيفة، قد تكون مناسبة في إطار يجعل القائم بها يكررها في وضعيات مختلفة أطلق عليها "ج. باتسون" Batison.G 1985 الإكراه المزدوج " Double contrainte أو المطالب المتضاربة ، كما يطلق عليها "علاء الدين كفاى" .

ويتخلل هذا المنظور النسقي عدة نظريات. حاولت كل منها تفسير الفعل الجانحى ضمن النسق الأسرى، من خلال التركيز على التفاعلات التي تتم بين أفراد الأسرة، ضمن خلفيتين:

إحداهما تنطلق من أن الجنوح انحراف عن القواعد الاجتماعية، وهو بالتالي انعكاس لتخلي الأسرة عن دورها نتيجة لظروف اقتصادية ، اجتماعية وعاطفية .

والثانية تنطلق من أن الجنوح اضطراب يمس سلوك الجانح، وهو بالتالي انعكاس للاضطرابات المرضية التي تتواجد في الأسرة نفسها(منطلق سايكاترى).

2. خلفية أن الجنوح انحراف عن القواعد الاجتماعية؛

ويمثل هذا المنطلق كل من " الزوج لاووبر، وفريشات، ولوبلان، وفرانقتون، Leober 1986, Frechte & Leblanc 1987, Farrington 1986" وفي هذا الإطار ظهرت أعمال علمية حديثة حاولت تفسير الفعل الجانح، مثل العمل الذي قام به الزوج " لاووبر ولاووبر 1986، وفريشات ولوبلون 1987 ... وغيرهم " .

1.2. تصنيف الزوج لاووبر للأسر الجانحين :

يرى الزوج لاووبر بأن أسلوب المعاملة الوالدية - الذى ظهر أول ما ظهر كعامل مثير للانتباه العلمى كان فى أعمال " ماكوبى ومارتن 1983 Maccoby & Martin"؛ حيث يقترح الزوج لاووبر أن نفرق بين أربعة " نماذج Paradigms للمعاملات الأسرية لفهم المشاكل المقترنة بالفعل الجانحى وهى كالتالى :

1.1.2. النموذج المبني على عدم الاهتمام الوالدى، Neglect paradigm

وهو نموذج مقترح كإطار لتحليل الأسرة، لايقوم بموجبه الوالدين بتخصيص وقت كاف لأطفالهم فيما يخص التفاعلات الإيجابية، ولا يهتمهم التجاوزات التي يقوم بها أطفالهم، كالسرقة الأولى مثلا.

كما لا يعيرون الانتباه إلى مطالب أبنائهم ولا لتطبيقهم للنظام داخل البيت ... إلخ. كما لا يهتمهم اهتمامات أبنائهم، ولا لكيفية تمرير وقتهم، ومن هم زملائهم .

الشيء الذى يجعل الأطفال يلتجئون إلى حل مشكلاتهم باعتمادهم على أنفسهم، حسب ما تملبه عليهم معرفتهم البسيطة . وهذا ما يجعلهم لا يهتمون بما يفكر فيه أولياؤهم، وهو مجرد رد فعل لعدم اهتمام آبائهم بهم. (Loeber Stouthamer, 1986, pp 41-42).

أما الشيء الملاحظ عبر هذا النموذج أنه يشير إلى عاملين أساسيين، يتحملهما الوالدان ألا وهما عدم تدخل الوالدين، مما يؤدي إلى قلة ونقص الإشراف، الشيء الذي يجعل الطفل يعتمد على تجربته البسيطة في التكيف مع المحيط .

2.1،2. النموذج المبني على الصراع الأسري: Conflict paradigm

وهو النموذج المقترح لتحليل الأسرة التي يعيش أفرادها (الأب، الأم، الأبناء) الصراعات الدائمة . فالصراع هنا إما ينطلق من الوالدين، أو يكون نتاج سلوكيات الأطفال، وهذه ميزة الأسرة التي لا تعرف كيف تضبط الحدود وتفرض قدرا من النظام . فهي إما تفرض نظاما قاسيا على الأولاد، أو أنها تتخلى كلياً عنه، أو أنها لا تستطيع أن تتعامل مع المشاكل حين طرحها، قبل استقرارها في وسط الأسرة؛ مما ينتج عنه كما يرى "الزوج لاوير" تكون أفكار سيئة لدى أفراد الأسرة فيما بينهم.

وبذلك يلاحظ أن الباحثين يؤكدان من خلال طرحهما احترام النظام من جهة، والكرهية المتبادلة بين أفراد الأسرة . هذان العاملان يمكن أن يقاسا داخل الأسرة حسب "الزوج لاوير" بما يلي:

أولاً: بالنسبة لتفسير احترام النظام ويتم قياسه كالتالي:

- الالتجاء إلى العقاب الجسدي والمنع اللذين يؤديان أحيانا إلى ما يسمى بالمعاملة السيئة، وهي كما عرفنا سابقا أنها أحد عناصر التنبؤ بالجنوح.
 - المضايقة والقمع المستمر.
 - خطأ المنطق المتعامل به.
 - نقص الحب.
 - انضباط مبالغ فيه أو عدم نجاعة النظام داخل الأسرة.
 - العقاب المبالغ فيه والذي يدرك من قبل الطفل على أنه غير عادل.
- ثانياً بالنسبة لتفسير الكراهية ويرى "الزوج لاوير" إما أنه ينطلق من الأبوين أو أحدهما نحو طفلها أو أطفالهما، أو من الأطفال اتجاه الأبوين أو أحدهما.
- وفي كلتا الحالتين (الأولى والثانية) يظهر هذا العمل الهوية الياقعة والتعلق بالوالدين.

3.1.2. نموذج الأسرة ذات القيم المنحرفة Deviant behaviors values paradigm:

وهو إطار مقترح لتحليل الأسرة التي يحمل فيها الوالدان أنفسهم قيمًا وسلوكيات منحرفة أو جانحة؛ مما يؤدي بهم إلى السماح بل تشجيع أبنائهم على ممارستها (Loeber, ibid., p44).

وهذا ما أشار إليه العلامة " ادوين سودرلاند " E. Sutherland في نظرية الترابط الفارقي التي مرت معنا، والتي في إطارها يبين كيفية تعلم الجنوح من المحيط .
وحسب هذا النموذج، يلاحظ أن الوالدين يدافعان عن أبنائهم في حالة تدخل المؤسسات الاجتماعية من اجل إصلاحهم . (Muccheilli, Ibid,P51).

4.1.2. نموذج الأسرة المضطربة : Disruption paradigm:

وهو مقترح لتحليل الأسرة التي تتعرض إلى أحداث عويصة تسبب فيها اضطراب علاقة أفرادها . وبالأخص علاقة الزوجين (الأبوين) إلى درجة تعرض تماسك الأسرة أحيانا إلى التفكك . وهنا يظهر القلق الذي قد يكون من أسبابه العوامل الاقتصادية الاجتماعية، أو العلاقة الزوجية التي تدفع إلى الحساسية والعدوانية في السلوك؛ مما ينجم عنه الإضرار بالعلاقات بالأطفال، ومن ثم إنقاص ثقة التواصل والتبادل بين أفراد الأسرة، كما يمكن أن يقلل من فعالية الإشراف الوالدي عن طريق إما جعل ممارسته متشددة أو متعمية .

إلا أن هذا الاضطراب قد يكون مؤقتًا، وهنا إما أن ينتهي أو يؤدي إلى الانفصال، أو يبقى مستمرًا، وفي هذه الحالة ندخل في نموذج الصراع الأسرى.

وقد حاولا الباحثان " لاووير " تفسير ذلك على أن اضطراب الأسرة يتم بالطرق التالية:

- أ - الاضطراب بين الوالدين وهو عادة أكبر مؤشر للجنوح.
- ب - ضياع أحد أو كلا الأبوين إما بالانفصال أو الموت.
- ج - صحة الأبوين الجسمية والعقلية؛ مما يحتم تحديد الآثار النفسية لهذه الحالة على الأطفال. " (Loeber, Ibid, pp72-79).

تلك هي النماذج الأربعة التي اقترحها الزوج " لاووير " من خلال التناول النسقي

للأسرة . إلا أن هذا كما يقول " ميكيلي " Mucchielli, 2000 أن " الزوج لاوير " لم يقل بالضبط ما هو النموذج الأسري، الذي يمكن أن يتماشى أكثر مع نوع وطبيعة الجنوح . إلا أنهما اقترحا فيما بعد من خلال تدخلاتهما المختلفة في المؤتمرات الدولية، بأن عامل " الإهمال " يؤدي أكثر إلى الاعتداء على الأشخاص .. غير أن ذلك لم يؤكد بحوث علمية ... " (Mucchielli, p51).

2.2. تصنيف "فريشات ولوبلون" لأسر الجانحين

تأثرا بتصنيف السابق الذي قدمه الزوج " لاوير " قام كل من " م . فريشات، لوبلون " M. Fréchette & Leblanc . 1987 . يبحث على عينة من المراهقين الساكنين في مدينة "كيبك الكندية"، حيث وصل الباحثان إلى اقتراح نمطين من الأسر المهيأة للجنوح، وهما:

1.2.2. الأسرة ذات المنحى المتصارع : La famille conflictuelle

وفيها تظهر كل أنواع المشكلات (الاجتماعية، الاقتصادية، العاطفية القانونية ... إلخ) والتي تخلق صراعاً خطيراً بين أفرادها .

2-2-2- الأسرة المنعدمة (غير الموجودة) : La famille Inexistante

وهي الأسرة التي لا تمنح لأطفالها لا الحب الحقيقي، ولا التأطير الجيد، مما يجعل الأطفال مستسلمين لأنفسهم . (Fréchette , M , Leblanc , 1987, pp149-150).

وهكذا يلاحظ مدى تأثير تصنيف (فريشات / لوبلون) بنتائج تصنيف "الزوج لاوير" بالأخص فيما يخص نموذجي الأسرة المتصارعة، والأسرة المبنية على عدم الاهتمام الوالدي لدى لاوير.

2.3. تصنيف "لوبلان" لأسر الجانحين

اهتم " لوبلان " Leblanc أكثر بتصنيف أسر الجانحين، مما دفعه إلى إجراء بحث في سنة 1990 . مستملاً في ذلك استبياناً مكون من 113 سؤالاً، طبقه على عينة مكونة من (4400 مراهق من بينهم 500 جانح مكفولين من قبل العدالة)؛ الشيء الذي نتج عنه إيجاد خمسة نماذج أسرية تتقارب كثيراً مع نماذج الزوج لاوير، التي أشرنا إليها سابقاً وهي:

1-3-1- نموذج الأسرة المناسبة أو الملائمة : La famille éduquâtes

وتوجد عند 45% من المراهقين ذكورا وإناثا، وتمتاز هذه الأسر بأنها : ليس لها مشكلات اقتصادية خاصة، ثبات بنيتها (كل أفراد الأسرة يعيشون معا)، الأم غير عاملة، أو تعمل نصف الوقت، الارتباط بين الوالدين والأبناء قوى، والدان غير منحرفين، إشراف قوى وعقاب قليل، نقص الأطفال المكفولين من قبل العدالة .

2.3.3. نموذج الأسرة المتنازعة : La famille conflictuelle

وتتصف هذه الأسرة بأنها سليمة وتتواجد لدى 18% من الذكور، و22% من الإناث المراهقات، وبنسبة 16% بين الإناث والذكور المكفولين من قبل العدالة .

يمتاز هذه الأسر بـ : كحولية متداولة لدى الوالدين، يتفوق لديها العقاب على الإشراف الوالدي، يظل الأب غائبا غيابا نفسيا حتى ولولم يتم الانفصال، الاتصال بين الأب والأبناء جد مضطرب .

3-3-3- نموذج الأسرة الخرقاء : La famille malhabile

وتتواجد لدى 16% من المراهقين الذكور و22% من الإناث، وبنسبة 39% لدى الجانحين الذكور تحت كفالة العدالة، و41% لدى الإناث من الحالة نفسها .

يمتاز هذا النمط من الأسر بـ : أن الوالدين فيه غير متفرغين، لوجود به لمفهوم الأسرة، تتصف الأسر فيه بكثرة التنقل من مدينة إلى أخرى، تعتبر الأم مصدر العيش في كثير من الأحيان .

أما لدى الأحداث المكفولين من قبل العدالة.. فتمتاز أسرهم بالفقر المدقع، ضعف الارتباط، قلة المراقبة والإشراف .

4-3-3- نموذج الأسرة المنحرفة : La famille déviant

وتتواجد بنسبة 16% عند الذكور وعند الإناث، وبنسبة 11% لدى الجانحين الذكور المكفولين من قبل العدالة، وبنسبة ضئيلة لدى الإناث .

تمتاز هذه الأسر بالفقر المدقع، تناول المخدرات، تعتبر الأم متغيبية في كثير من الأحيان .

5.3.3. نموذج الأسرة العقابية : punitive La famille

وتواجد بنسبة 4% لدى الذكور و15% لدى الإناث من العينة العامة . أما لدى الجانحين المكفولين من قبل العدالة فتواجد بنسبة 8% عند الذكور، وبنسبة ضئيلة لدى الإناث.

تمتاز هذه الأسر : بأن الارتباط بين أفرادها ضعيف مقارنة بالأسرة الملائمة، كما ظهر أن هناك فارقاً ما بين إشراف غير ممارس وعقاب قسوى، ويظهر أن التعلق قليل لدى المراهقين مقارنة بالأسرة الملائمة، كما يظهر الفقر المدقع بالأخص لدى الأسر التي لها أطفال تحت كفالة العدالة .

وهكذا يلاحظ مما فات أن التنظيم الأسرى الأكثر خطورة في توليد جنوح الأحداث، يظهر حسب الأهمية التنازلية لترتيبه، كما يلي :

الأسر الخرقاء، الأسر العقابية، الأسر الصراعية، الأسر المنحرفة، وأخيراً الأسر الملائمة؛ حيث بنى هذا الترتيب التنازلى على المقارنة بين العينة الكلية والعينة المكفولة لدى العدالة.. إلا أن الملاحظ أن الأسر الأكثر توليدا للجنوح تمتاز أكثر من غيرها بانحطاط كبير في الجانب الاقتصادى وتناول أقل للكحول.

وهكذا رغم أهمية هذه الدراسة فى الكشف عن أنماط الأسر المولدة للجنوح.. إلا أنها لم تحدد - على غرار دراسة " الزوج لاويير " - طبيعة الجنوح الذى يتولد عن هذه الأنماط المختلفة من العائلات ، كما أنها لم تحدد لماذا أحد الأطفال بين أخويه يكون هو بالضرورة جانحاً دون غيره ؟ ولماذا لم يظهر الجنوح لدى بعض العائلات دون غيرها رغم تماثل الظروف المثيرة للجنوح ؟

4. خلفية أن الجنوح اضطراب مرضى يمس السلوك

لم ينطلق هذا المنظور أصلاً من الجنوح كانهرف عن المعايير الاجتماعية التى يعيشها الفرد ضمن جماعته، وإنما من كون الجنوح اضطراباً مرضياً مثل بقية الاضطرابات الأخرى يصيب الجانح فى سلوكه؛ مما يجعله يأتى بأفعال تعكس الاضطراب السلوكى الذى يعيشه الأبوان، والذى سيجد له متنفساً فى أحد أطفالهما ليتخذه وسيلة للتعبير عن حاجتهما النفسية غير المشبعة، عن طريق عمليات تفاعلية لا سوية يكون أبطالها كل أفراد الأسرة .

وفي ذلك ظهرت عدة نماذج تحاول تفسير تلك التفاعلات اللاسوية مثل " التعمية لـ ر.لينغ 1956 R.Laing، والتبادلية الكاذبة لـ ليمان واين 1958 Lyman Whyne، والمثلث غير السوي لـ بوين 1994 Bown، وكبش الفداء لـ أكرمان 196 Ackerman، إلخ...

4-1- نموذج التعمية Mystification:

واستعمله " لينغ " للتعبير عن الصورة المرضية للأسرة، ويتضمن المراوغة، والإنكار، ولبس القناع .

وهنا عادة ما يكون الآباء هم الذين يستغلون الأطفال، بينما يكون الأطفال هم الطرف الذي يقع عليه الاستغلال .

وبموجب مفهوم التعمية يحس الطفل بأنه سعيد مثلاً، بينما هو غير ذلك، وعندما تختلف خبرته الشخصية عن الآخرين.. فإنه يحس بالقلق والحيرة والتشويش مما يجعله يعتمد على الآخرين في وصف وتفسير الواقع المحيط به، وبالتالي فهو يقيم حياته على ما يراه الآخرون صواباً أو خطأ.

وبذلك يستدخل الطفل مرض الأسرة وانحرافها، ويصبح جزءاً من الحلقة النشطة العاملة في الحفاظ على انغلاق الأسرة، في (علاء الدين كفافى 1999، ص ص 150-158).

4.2، نموذج التبادلية الكاذبة Pseudomutuality:

ويقول بها "ليمان واين " وبموجب ذلك تتم الألفة بين طرفين، لكنها ألفة كاذبة، حيث تتم على حساب النمو الشخصي لأعضاء الأسرة وعلى حساب هويتهم المستقلة مما يعطى نمطاً أسرياً متعلقاً . وهذا ما يطلق عليه ما يسمى "أسطورة الأسرة Family myth".

فعلى الرغم من غياب الأب الطويل، تظل الأم تصر على أن زوجها يكرس نفسه لخدمة أسرته بل ويتفانى في ذلك، وتحاول أن تغرس ذلك في نفوس أبنائها وإقناعهم بأنهم سعداء .

وفى هذا أشارت " سبيرج " 1985 Seiburg إلى أنها عندما ركزت العلاج على الأب بحضور بقية أفراد الأسرة، ثارت ثائرة الأسرة كلها تدافع على سعادة الوالد، ذلك أن الوالد كان فارضاً عليهم أن يكونوا سعداء.. رغم أن الأسرة ككل كانت تعاني من مظاهر خلل عديدة ، ولم تعد من ساعتها إلى العلاج. فى (علاء الدين كفافى. 1999، ص ص 148 - 150).

3.4. نموذج المثلث غير السوى Pervers triangle:

ويتكون هذا المثلث حسب " بوين " من أحد الوالدين مع الطفل ضد الطرف الأول (الأب أو الأم). وتمتاز العلاقة بين الزوجين بالبرودة بل أقرب إلى العلاقة التنافسية العدائية.

كما يكون الأبوان غير ناضجين، ولكنهما لا يعترفان بعدم النضج، ويدعيان التوافق ويبالغ كل منهما فى ذلك؛ خاصة الأم فهى التى تحرص على ادعاء التوافق أكثر؛ مما يؤدي بالأب إلى ترك المجال للأم للسيطرة على الأسرة لتسبب حاجتها للسيطرة، وهذا ما يطلق عليه " بوين 1994 " تسمية "الطلاق العاطفى . " Emotion divorce ، ويتم بموجب ذلك أن الأم المسيطرة تفضل تترقب وصول المولود، الذى يتمنى إليها ويحتاج إلى مساعدتها . وما أن تشعر بالمولود القادم حتى تتمركز عاطفياً نحو الطفل الذى لم يولد بعد، بدلا من الزوج الذى تكون معه فى حالة طلاق عاطفى بالفعل . ويزداد هذا التمرکز حول الطفل، وتنسى مسؤولياتها الأخرى نحو الأسرة بدعوة حماية الوليد الضعيف؛ مما يزيد ما قلنا وهما زائداً . وهذا فى الحقيقة تعبير عن عدم توافقها أصلا .

وإن لم يوجد حل لهذا الوضع، يرى " بوين " أن الأم قد تتخذ ميكانيزمات ذات طابع عصائى، مما ينمى لديها شخصية عصائية، وإذا استمر ذلك فيتحول إلى أعراض سيكوسوماتية، أو أعراض هستيرية، أو الارتقاء فى أحضان الإدمان والجنوح.

4.4. نموذج كبش الفداء Seapegoating:

ويقصد به استغلال الطفل لصالح توترات الوالدين؛ لتوفير حل المشكلات الوالدية المستعصية، وإن كان حلاً غير سوى؛ فعندما يصبح التوتر شديداً بين الوالدين، ينبغى أن يحدث تفرغ لهذه المشاعر والانفعالات . ولما كان الوالدان لا يستطيعان التعبير عن

مشاعرهما مباشرة - كل منهما نحو الآخر - لان هذا من شأنه أن يزيد التوتر بينهما، ويلهب الصراع إلى الحد الذي قد لا يتحملانه.. فإن وجود طفل يقدم الحل الذي يتمثل في توفر الهدف، الذي تتجه إليه الانتقادات والمشاعر السلبية لكل والد نحو الوالد الآخر، بعد أن يحولها أو يزيحها إلى هذا الهدف النبيل، (د/ جابر عبد الحميد، علاء الدين كفاي، 1988، ص 415).

ويعتبر "د/ علاء الدين كفاي 1999" أن اتخاذ وضعية كبش الفداء من أكثر العمليات المرضية انتشاراً وشيوعاً في الأسر المضطربة؛ لأنه من أكثر الميكانيزمات فائدة وصيانة للنسق الأسرى.

وفي رأيه يختار الطفل ككبش فداء بصورة تكاد تكون لاشعورية، ولكنها رمزية.. ففي حالة فشل الزواج مثلاً، سوف يكون كبش فداء الزوجين الطفل الفاشل في دراسته بسبب أنه يرمز للفشل، كما يمكن أن يختار الطفل لكبش الفداء حسب جنسه، أو تربيته الميلادى، أو بحسب بعض العيوب كانهفاض الذكاء، أو إصابته بمرض جسمى أو عاهة، أولديه انقياد وسلبية وخضوع وقابلية للانسحاب .. (د/ علاء الدين كفاي، 1999، ص 154 - 155).

أما الديناميات وراء لعب هذا الدور، فإن الطفل يتدرب على أن يكون حساساً للتوترات الناشئة في النسق الأسرى، وعليه أن يجذب الانتباه إليه بسلوك معين يجعل الجميع يحول انتباههم إليه، وقد يؤنبونه أو يعاقبونه، وبهذا ينخفض التوتر الأصلى في النسق ويعود إلى حالة الاتزان؛ ذلك أن الطفل الذى يقبل بهذا الدور يستدخل توقعات والديه، ويستمر في الاستجابة إلى الحاجات الوالدية بشكل شعورى أو بشكل لاشعورى . ومن هنا فإن الطفل الممزق سوف يستمر ممزقاً ما دام سلوكه يجد التدعيم، والطفل المضطرب سوف يبقى مضطرباً للسبب نفسه، ما دام دوره أساسياً في الحفاظ على التوازن وفي استعادته إذا اهتز. (المرجع نفسه، ص 155).

كما أن هناك بعض الاضطرابات السلوكية الأخرى، قد أشار إليها " ليدز lidz 1960"، تحدث عادة في الأسر المولدة للمرض، وهى الانقسامات ما بين أفراد الأسرة الواحدة، انحراف الأسرة، العزلة الاجتماعية والثقافية للأسرة، الفشل في تعليم الأبناء

وتسهيل تحررهم من الأسرة، إعادة التنميط الجنسي والهوية الجنسية ... في (علاء الدين كفاقي، 1999، ص ص 156 - 158).

ومن الذين اهتموا بالمناخ الوجداني غير السوي في الأسرة، ضمن التناول النسقي، الباحث " أكرمان Ackerman 1958 " الذي يرى أن في مثل هذه الأسر نوعاً من التناقض بين ما يبدو على السطح وما يحدث في الداخل ، فما يبدو على السطح يوحي بالهدوء لا يقوم على أسس قوية داخل الأسرة، وعلى نوعية العلاقات بين أفرادها، وعليه ينتشر في جوال الأسرة نوع أسماه أكرمان " الموت الوجداني Affective Deadness"، وهو جو يصيغ المعاملات بين أفراد الأسرة بصيغة اكتئابية، تتسم بالحد الأدنى من التلقائية والحيوية والحركة الحرة.

غير أن هذا الهدوء المصطنع يحدث أحياناً أن تمزقه بعض الثورات الانفعالية العنيفة، التي تنطلق من حادث صغير تافه لينقلب بسرعة إلى إثارة غامرة وذعر شديد ليفتقد الاستقرار والأمن . غير أن الثورة التي هبت فجأة تنطفئ كذلك فجأة، وكأن شيئاً لم يكن، وهكذا يرى أكرمان أن المنزل يتحول إلى مكان موحش وفارغ من العلاقات الإنسانية الدافئة، وكأنما يفقد كل شيء معناه في هذه الأسر.

لذلك يشعر أبناء هذه الأسر بالقلق والذنب. وتسرى العدواة بسهولة من واحد لآخر. وفي هذا الجو الكئيب يخاف عضو الأسرة دائماً من أن يلام، وان يسب وأن يعاقب، وكدفاع ضد هذا الخوف.. تنمو لدى عضو الأسرة الحاجة إلى كبش فداء، وإلى إصاق التهم بالآخرين ودمغهم بأوجه النقص.

وهنا يرى أكرمان أن الدافع الجنسي يرتبط بالدافع العدواني على نحو وثيق لدى أفراد هذه الأسرة، ولكن الدافعين يعانين الكبت الشديد فيسقط الفرد مشاعره السلبية والإحباطية على العالم الخارجي، ويدركه عالمًا قاسياً غير ودي . وعلى أفراد الأسرة لكي يواجهوا هذا العالم المعادي، أن يؤكدوا مبادئ الولاء المتبادل؛ فكل منهم يرى من واجبه أن يشجع الآخرين ويدعمهم؛ لأنه دون هذا التشجيع والدعم يشعر الجميع بأنهم مهددون بالهلاك . في (علاء الدين كفاقي، مرجع سابق، ص ص 160-161).

بل يصل الحال بالأبوين أو أحدهما إلى حد إسقاط الطفل في ما أسماه "د/ كفاقي

1999 " لا أنسنة " Dehumanisation أو ما أطلق عليه "التشيئية" chosification وهي علاقة كما يرى "كفافي"، "...غير إنسانية أو مشيئة، والتي بموجبها يدرك فيها أحد الأطراف الطرف الآخر كشيء أو كوسيلة لتحقيق غاية وليس غاية في حد ذاته . وكثيرا ما يكون التملك وراء هذا التوجه في العلاقة، الذي ينظر إلى شخص آخر نظرة مشيئة ينظر إليه كشيء يمتلكه، وهو الاتجاه الذي يحكم نظرة كثير من الرجال نحو النساء، أو الأزواج نحو الزوجات، ونظرة الآباء نحو الأبناء... (كفافي، مرجع سابق، ص 137).

وهكذا يلاحظ كأن هذه الأسر المولدة للاضطراب تبني شرنقة لأطفالها، لا يمكن الخلاص منها، رغم التعفن الداخلي الذي يمس كل أفراد الأسرة وتواصلهم مع بعضهم البعض؛ مما يجعل الأبناء يبحثون خارج هذه الشرنقة الأسرية المتصدعة التواصل، عن تواصل مع بديل آخر أكثر تفهماً وحباً وتقديراً في نظر هؤلاء، وهذا المكان قد يكون زملاء وكل المؤسسات الاجتماعية الأخرى، وقد يكون غول الشارع وما فيه من مشيرات، قد تلتهم هذا الباحث عن مصدر آخر أكثر حباً وتقديراً.

إلا أن الذي لم يشر إليه في هذه النماذج المختلفة، أن أفراد الأسرة وبالأخص (الأم والأب) وما يتخلل علاقاتهما من صراعات شعورية أو لا شعورية، متعلقة إما باضطراب شخصية أحد منهما أو كليهما قبل الزواج، واضطراب شخصيتهما بعد تجربة الزواج.. هذا الاضطراب المرضي ينعكس مباشرة على أحد أطفالهما، وهو طبيعة المناخ الوجداني السائد في الأسرة على أساس أن العلاقة بين الطفل والديه تكون في البداية اعتمادية تظهر على شكلين : شكل بيولوجي وشكل عاطفي، فإذا قل الشكل البيولوجي بعد ذلك، إلا أن الشكل العاطفي من العلاقة يبقى مستمرا لمدة أطول؛ أي إن عملية التواصل تبقى دائما مستمرة، رغم تغير أشكال العلاقات .

وهكذا يلاحظ أن التناول النسقي للأسرة أعطى اهتماماً كبيراً لصيغة التواصل داخل الأسرة، والذي جعل منه سبب كل الأسباب المؤدية إلى اضطراب كل أفراد الأسرة وبالأخص ما يصيب الطفل (نموذج الرابطة المزدوجة لـ باتسون، ونموذج التعمية لـ لينغ، ونموذج التبادلية الكاذبة لـ ويني ... إلخ.

فالجانح في هذه الحالة هو أصلاً خريج نسق اتصالي تفاعلي مريض ولا مجال لثنيه

عن ذلك إلا بإصلاح هذا النسق، ومن خلاله إرجاع عملية التواصل والتفاعل إلى حالتها الطبيعية؛ أى الاهتمام بكل أفراد الأسرة ومن بينهم الجانح كنسق غير منفصل عن النسق الفوقى، وفى تفاعل مع الأنساق الفرعية المكونة لها .

5. تعليق:

رغم أن هذا التناول لم يفرق بين الجانح المرضى الذى يقول به السايكثريون، والجانح الاجتماعى الذى يقول به النفسانيون والاجتماعيون. ألا أنه يمكن إضافة إلى العامل المرضى الكامن أصلاً فى شخصية الأب والأم، القول كذلك بالعامل الاجتماعى والاقتصادى (البيئة المادية المحيطة)، كمؤثر فى بناء شبكة العلاقات والتواصلات بين أفراد الأسرة؛ ذلك أن النفسى لا يتكون إلا إذا اتصل البيولوجى المعرفى (المكونات الداخلية) بالبنى (المكونات المادية العلائقية)، وحدث تفاعل بينهما.

وبهذا ولأول مرة تنزع صفة البطل الرئيسى لعملية الجنوح وسحبها على كل أفراد الأسرة، عكس ما جاء فى كل النظريات الأخرى .

كما ابتعد هذا التناول - بخلاف بقية تناولات الأخرى - عن مجرد تجميع لعوامل مختلفة، وإيجاد درجة الارتباط فيما بينها والقول بتفسير السلوكيات المنحرفة والإجرامية، وهذا ما فعلته بالأخص الدراسات الطولية وغيرها، والتي ترى عموماً أنه كلما يكون عنصراً واحداً هو المحدد الوحيد لظاهرة ما.

إن التناول النسقى للأسرة خالف ذلك، وجعل كل أفراد الأسرة المكونين للنسق وما يدور بينهم من علاقات وتحالفات، تحدها القواعد الداخلية التى تحكم الأسرة، وليس احتياجات الأفراد أودوافهم أو سمات شخصياتهم هى التى تحدد تتابعات التفاعل بين أفراد الأسرة؛ علماً أن الإبقاء على هذه العلاقات هو الإبقاء على الأسرة ذاتها، وإلا فلن تكون أماناً أسرة.

وفى ذلك يرى "ج.ج. لومير .. " Lemaire J.G 1989 أن التناول النسقى يظهر العلاقة الدائرية والتكاملية التى تنظم الفروق الفردية (المميزات الفردية) لأعضاء النسق؛ فهى كذلك ليست نظرية تفسيرية فى حد ذاتها، ولكنها مجموعة نظريات توصف بشكل معين تنظيم المصطلحات داخل نظرية تفسيرية ... " Lemaire (1998,p115).

وبناء على ذلك يقترح "لومير" استعمال النظرية التحليلية فى تفسير الطريقة الخاصة لمحتويات التفاعل الأسرى كنسق، كما يذهب " كرستيان سافار Christian Savard 1997 ؛ انطلاقاً لما قال به كل من " برودر، بيلسر، طراب & Pelsser, Tarab Brodeur من أن " التناول التحليلي يهتم بما يدور داخل الأفراد بينما يهتم التناول النسقى بما يدور بين الأفراد، ولذلك يرى أن هنالك تداخلاً وتأثيراً متبادلاً ما بين ما يدور فى أعماق النفس، وما يدور بين الأفراد .

وهكذا أراد " كرستيان سافار وآخرون " الجمع بين التناول التحليلي والتناول النسقى فى إطار واحد، يمكنه أن يصبح قادراً أكثر فى نظرهم على تفسير الاضطرابات التى تمس شخصية الفرد وشخصية الجماعة ومجموع علاقاتها، والجنوح من بين هذه الاضطرابات التى يمكن تفسير ملمحه بناء على ذلك .

وإن كان ثمة سؤال: أى نموذج قال: لماذا هذا الطفل بالذات دون الآخر؟، وهل يدوم هذا الاضطراب لمدة طويلة؟، وهل يمكن أن يظهر فى بعض أعمار معينة للوالدين دون غيرها؟ وهل كل هذه النماذج ينتج عنها بالضرورة جنوح الصغار؟ ... إلخ، وما علاقة هذا النوع من الاضطرابات بالمستوى الاجتماعى الاقتصادى والتعليمى للأباء، وعدد الأطفال، وترتيبهم الميلادى، وجنسهم؟ ... إلخ، كلها أسئلة تحتاج إلى توضيح أكثر ضمن التناول النسقى .

ولكن رغم ذلك يبقى التناول الثنائى (التحليلي الداخلى، والنسقى البيئى) لا يكتملان فى تفسير ظاهرة الجنوح، إذا لم نفسر الظاهرة من وجهة نظر الجانح نفسه (إدراك الجانح) لما يدور فى البيئة التى يعيش فيها، انطلاقاً من إدراكه الشخصى لكل العلاقات والتفاعلات والمشكلات التى عاشها بالأخص فى الأسرة كبيئة قاعدية وأساسية، استمد منها خبرته الأولى والأساسية، والتى ستبقى منقوشة فى شخصيته .

إنه التناول السلوكى المعرفى، وبالأخص نظرية التعلم الاجتماعى .